بسم الله الرحمن الرحيم

مؤسسة آل البيت الملكية للفكر الإسلامي

المؤتمر العام الخامس عشر لأكاديمية آل البيت الملكية

١٨ـ٢٠ شوال ١٤٣١هـ الموافق ٢٧ـ٢٩ أيلول/سبتمبر ٢٠١٠م

البيئة في الإسلام

منظور الإسلام للبيئة وعِلمها: الإيكولوجيا

الأستاذ الدكتور عباس الجراري

عمّان- المملكة الأردنيّة الهاشميّة

بسم الله الرحمن الرحيم

منظور الإسلام للبيئة وعلمها: الإيكولوجيا

مقدمة: مفهوم البيئة وعلمها

البيئة في مدلولها اللّغوي تعني منزل القوم، والمكان الذي يتبوأونه ويتّخذونه لهذا الغرض، وهي بكسر الباء ؛ ومثلها الباءة والمباءة، وأصلها بَوَّأ منزلاً أي اتّخذه منزلاً ؛ وكذلك أباءه واستباءه.

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة منها: [وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ] **[الحج: 26]**، [وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا] **[الأعراف: 74]**، [وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ] **[الزمر: 74]**.

أمّا في الحديث النّبويّ الشّريف فالمادّة غير يسيرة، على نحو قول رسول الله ρ: «إذا اضطجع الرّجل فتوسّد يمينه ثمّ قال: اللهم إليك أسلمت نفسي وفوّضت أمري إليك وألجأت إليك ظهري ووجّهت إليك وجهي، رهبة منك ورغبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلّا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت، ومات على ذلك بني له بيت في الجنة أو بُوِّئ له بيت في

الجنة»[1]، وقوله υ: «من عاد مريضاً نادى منادٍ من السّماء: طِبتَ وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلاً»[2].

وأمّا في الشّعر العربي، فإنّا نجد مادّة وافرة ؛ منها قول أحدهم:

وبوئـــت في صميـــم معشرهـــا وتـــمَّ فـــي قومـــها مُبَوَّأُهـــا

أي أنها "نزلت من الكرم في صميم النّسب"[3].

والبيئة في الاصطلاح المعاصر تعني مجموعة من الظّواهر والمظاهر المختلفة، تكون متكاملة ومتفاعلة ومتناغمة في الكون، بتوازن وانسجام، سواء داخل حواضر أو قرى أو بواد.

ويرد في معناها "الوسط" الذي هو ترجمة Milieu، وكذلك "المحيط" الذي هو ترجمة Environnement. وهي كلّها بمعنى المكان الذي يعيش فيه الإنسان.

لقد عني العلماء بالبيئة في مجالات متعددة حسب مظاهرها: فلكياً، وجيولوجياً، وفيزيائياً، وكيميائياً، واقتصادياً، واجتماعياً، وفلسفياً، ودينياً كذلك. ذلكم أنّ البيئة تشكل ظواهر متعدّدة ومتنوّعة، تبدأ من طبيعة المناخ إلى الهواء والماء، وما يرتبط بها من رياح وأمطار. والإنسان على رأس هذه الظّواهر الكونيّة التي سخّرها الله له، فهو المتحكّم فيها، والمهيمن عليها، والمطالب بأن يتعامل معها بعقل واتّزان وانتفاع واستمتاع، وبحبّ كذلك، وأن يهتم بها، وألّا يكون المسبّب لفسادها.

أولاً: مدى الاهتمام بالبيئة في الفكر الغربي والإسلامي

1- في الفكر الغربي

---

(1) رواه ابن حنبل عن البراء بن عازب.

(2) رواه ابن ماجة عن أبي هريرة.

(3) انظر "لسان العرب" لابن منظور.

لقد ظهر هذا الاهتمام عند الغربيين إلى حد أنشأوا له علماً أطلقوا عليه "علم البيئة" Ecologie. وهو العلم الذي يُعنى بدراسة علاقة الكائنات الحيّة مع محيطها الطّبيعي بقصد حمايته، مع العناية بهذه الكائنات، بدءاً من الإنسان إلى ما يساكنه من حيوان. وقد جاءت نشأة هذا العلم مرتبطة بظروف النّهضة الصّناعيّة التي عرفها الغرب، ولا سيّما في القرن التّاسع عشر.

وفي إطار هذه العناية، وعلى إثر ظهور نتائج وخيمة أبرزتها تلكم الدّراسة، نشأت تيّارات معارضة للتّعامل السّيء مع البيئة. ومن ثمّ كانت لبعض الدّول الأوروبيّة والأمريكيّة مبادرات، على نحو ما تمثّله حركة "الخُضر" في ألمانيا، وما قام به الإيكولوجيون الفرنسيون فيما يتّصل بالخصوصيّات الإقليميّة ؛ في وقت اتّجه الاهتمام في الولايات المتحدة للجوانب الاستهلاكيّة.

يضاف إلى هذا أنّه لأهميّة البيئة في المنظور العالمي، عقد أوائل شهر يونيو 1992م في ريو دي جانيرو بالبرازيل مؤتمر للبيئة والتنمية وصف بـ: "قمّة الأرض". ومنذ هذا التّاريخ اتّخذ العالم ـ بما فيه الدّول العربيّة والإسلاميّة ـ يوم الخامس من يونيو يوماً عالمياً للبيئة.

ومواكبةً لهذا الاهتمام، ظهرت الدّعوة إلى الحقوق، ولا سيّما حقّ الإنسان في الحياة، والانتفاع بكل ما تتيحه له البيئة. إلّا أنّ الحديث عن الحقوق يدعونا إلى أن نتأمّل المنظور الإسلامي إليها، بدءاً من المدلول اللّغوي للكلمة (الحقّ) التي وردت في القرآن الكريم أربعاً وسبعين ومائة مرّة، إلى جانب ألفاظ أخرى مشتقّة منها جاءت في ست وسبعين آية.

ويمكن إجمال هذا المنظور في كلّ ما يظهر ويثبت بصحّة ومطابقة ووضوح. وهو بهذا يدلّ على الصّدق والعدل والعلم والحكمة، وعلى ذات الله وكتبه وشرائعه، وعلى كل ما ينافي الباطل والضّلال. كما يدل على الواقع

الموجود الذي لا يرتفع، وعلى ما يعبّر به عن هذا الواقع. ثم هو يدلّ على ما ينبغي للنّاس أن يتمتّعوا به ويستفيدوا منه، ويفعلوه في إطار ما تتيحه فطرة الإنسان وطبيعته البشريّة، في نطاق ضوابط دينيّة أو قوانين وضعيّة أو عادات وأعراف متّبعة.

إنّ حقوق الإنسان في الإسلام قائمة على التّكريم الذي قال عنه الحقّ سبحانه: [وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا] **[الإسراء: 70]**. وقد جعل الإسلام هذه الحقوق غير مقتصرة على الإنسان، بل تعدّته إلى العناية بالحيوان، على نحو ما نجد في سور كثيرة كسورة النّمل التي جاء فيها: [قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ] **[النّمل: 18]**؛ وسورة العنكبوت التي قال فيها عزّ وجل: [كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ]**[العنكبوت: 41]**. ومثل هذا نجده في سور عديدة، كالبقرة والأنعام والنّحل والعاديات والفيل.

وعن سعيد بن جبير أنّه قال: "خرجت مع ابن عمر من منزله، فمررنا بفتيان من قريش نصبوا طيراً يرمونه، وقد جعلوا لصاحب الطّير كل خاطئة من نبلهم. قال: فلما رأوا ابن عمر تفرّقوا، فقال ابن عمر: من فعل هذا ؟ لعن الله من فعل هذا، إنّ رسول الله ρ لعن من اتّخذ شيئاً فيه الرّوح غرضاً"[1].

وقد قال رسول الله ρ: «عُذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النّار، لا هي أطعمتها وسقتها إذ هي حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خَشاش الأرض»[2].

---

(1) رواه ابن حنبل.

(2) رواه مسلم عن نافع. والخشاش بالخاء والحاء والكسر والفتح، وكسرها أفصح.

ولعلنا أن نلتفت إلى أمر مهم يجعل الحقوق مقترنة بالواجبات، إن لم نقل أنّها تتحوّل إلى واجبات ؛ ممّا يجعلها جميعاً ـ أي الحقوق والواجبات ـ خاضعة لما يضمن المحافظة عليها، في تنظيم للحياة يقوم على علاقات متوازنة، بها تتحقّق المصالح وتحمى من كلّ خرق أو عبث.

وهكذا لو تأمّلنا كلّ الحقوق التي نتمتّع بها، لوجدنا أنها مقابَلة بواجبات، بدءاً من الحريّة والأمن والتّعلّم والعمل، إلى الاستمتاع بالنّعم التي أكرم الله بها عباده ـ أي بيئتهم ـ والتي يقابل حقّهم فيها واجب الحفاظ عليها، وعدم الإسراف في استهلاكها، والحرص على بقائها صالحة.

ويكفي للدّلالة على هذا الاقتران بين الحقّ والواجب في الإسلام، أو كيف يتحوّل الحقّ إلى واجب وفرض، أن نقرأ قوله تعالى يحثّ على العمل: [وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ] **[التّوبة: 105]**، وقول الرّسول الكريم ρ موجباً طلب العلم: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[1]. ومثل ذلك يُقال عن الحقّ في الحريّة التي بدونها لا يكون تكليف، وكذلك في الأمن والطّعام اللذين ربطهما الله بعبادته: [فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ] **[قريش: 3، 4]**.

ذلكم أنّ اقتران الحقوق والواجبات بالمحافظة على البيئة ينطلق من أنّ البيئة الصّالحة مظهر أساسي من مظاهر الحضارة والثّقافة في أي مجتمع. وقد تناولها الإسلام ـ على نحو ما سنرى ـ باعتبارها منظومة متكاملة ومتناسقة، بدءاً من إيجاد الخالق سبحانه لها، إلى مسؤوليّة الإنسان في المحافظة عليها وصيانتها وتنميتها وتطويرها، والحرص على عدم إفسادها والعبث بها. ووضع لذلك ضوابط ومعايير تمثّلها تعاليمه السّمحة الرّابطة بين البيئة السّليمة والمجتمع الصّالح.

---

(1) أخرجه ابن ماجة عن أنس بن مالك.

والحقيقة أنّ موضوع البيئة قديم قِدَم الإنسان، إذ كان في طليعة اهتمام الرّسل والأنبياء، انطلاقاً من أنّ الله Y منذ الأزل خلق الأرض وما فيها، ومنها أوجد الإنسان، واستخلفه فيها لعمارتها، ثمّ هو يعود إليها ليخرج منها بعد ذلك للحياة الآخرة. يقول Y متحدّثاً عن الأرض: [إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ] **[ص: 71، 72]**، [مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ] **[طـه: 55]**، [هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا] **[هـود: 61]**، [وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ] **[البقرة: 30]**.

2- في الفكر الإسلامي

ويبدأ منظور الإسلام للبيئة بأنّ الله هو وحده المالك للسّماوات والأرض وما بينهما: [وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا] **[المائدة: 18]**، [لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ] **[سبأ: 22]**.

ولقد خلق الله الأرض والسّماوات ثمّ خلق الإنسان مباشرة: [هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً] **[البقرة: 29- 30]**.

وبما أنّ البيئة هي المحيط الذي يعيش فيه الإنسان بجميع ظواهره ومظاهره، براً وبحراً وجواً، فقد تحدّث القرآن الكريم عن البرّ، أيّ عن الأرض في آيات كثيرة: [وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ] **[الأنعام: 141]**، [وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ] **[يس: 33- 35]**. وفي البرِّ تحدّث عن المعادن: [وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ] **[الحديد: 25]**. كما تحدّث عن البحر مفرداً

ومثنى وجمعاً في مثل قوله: [وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ] **[لقمان: 27]**. هذا ولا ينبغي أن ننسى البيئة الفضائيّة المتمثّلة في الجو بما فيه من أفلاك، وفق قوله Y: [يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ] **[البقرة: 189]**، [فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا] **[الأنعام: 96]**، [ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ] **[الرّحمن: 5]**، [وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ] **[الحجر: 16]**.

وارتباطاً بالجو تناول الذّكر الحكيم ظاهرة الرّيح بصيغة المفرد وما يكون معها من عذاب أليم كقوله تعالى: [فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ] **[الحاقة: 6]**، [رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ] **[الأحقاف: 24]**. في حين ذكر الرّياح بصيغة الجمع وما يواكبها من سحاب الخير فقال: [ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا] **[الرّوم: 48]**، [وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ] **[الحجر: 22]**. ويكفي لإبراز أهمّيّة الماء أن نشير إلى قوله سبحانه: [وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ] **[الأنبياء: 30]**، وكذا إلى قوله الكريم متحدّثاً عن المياه الجوفيّة: [أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ] **[الزمر: 21]**.

ثانياً: أسباب فساد البيئة

لقد سخّر الله تعالى جميع هذه الكائنات للإنسان: [أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً] **[لقمان: 20]**، وطالبه بعمارة الأرض: [هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا] **[هود: 61]**. ومن أجل ذلك استخلفه على هذه الأرض: [وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً] **[البقرة: 30]**، [وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ] **[الأنعام: 165]**، [وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ] **[الحديد: 7]**. والاستخلاف يعني التّكليف باستثمارها

والتّصرّف فيها انتفاعاً واستمتاعاً: [وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ] **[الأعراف: 10]**، [وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا] **[الأعراف: 74]**. وهو استثمار مؤقّت وغير دائم: [وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ] **[البقرة: 36]**، لأنّ الله تعالى هو الوارث الدّائم للأرض ومن عليها: [إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ] **[مريم: 40]**.

نعم، لقد بسط الله الأرض وأخصب تربتها لتعطي الزّروع والثّمار، وجعل فيها من كلّ شيء نافع، بضبط وتقدير، حتى تكون ميسّرة لمعيشة الإنسان ولغيره من المخلوقات التي أوجدها Y، ولم يكلّف الإنسان عناء رزقها. يقول تعالى: [وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ۝ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ۝ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ] **[الحجر: 19- 21]**.

وعلى الرّغم من أنّ ما خلق الله من كائنات وأشياء وظواهر وغير ذلك متوافر عنده سبحانه وتحت طوعه وإمرته، فإنّه لا يُخرج ذلك للنّاس ولا يُنزله لهم إلّا بمقدار محسوب عنده Y، يتناسب وما يحتاجونه وما يصلح لهم. ولنا أن نتصوّر لو أنّه تعالى ألقى إلينا بكميّات من الماء أكثر ممّا نتحمّله، ماذا كان سيحدث من فيضان وإغراق؟ أو أن نتصوّر لو أنّه جعل الأرض تتفجّر بما تختزنه من نفط وغيره من غازات ومواد، ماذا كان سيصير أمرها وأمر الإنسان وسائر الكائنات؟

إنّ الكون قائم على التّوازن وعلى الانضباط. يقول العلي القدير: [وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا] **[الفرقان: 2]**، [إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ]**[القمر: 49]**، أي بقدر معلوم ومضبوط، ووفق معايير يعلمها الله ويريدها ويشاءها، ولا ينبغي تجاوزها أو يمكن ذلك. ولا يظنن أحد أنه أو أنّ غيره قادر على التدخّل ضدّ إرادة الله أو تجاوزها، بأي شكل من الأشكال التي قد يكون فيها تحدّ للخالق وإرادته. فهو القائل سبحانه: [أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا

رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ] [النّمل: 61]، [ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ] [البقرة: 22].

إنّ الله تعالى يتصرّف في الكون والخلق وفق إرادته ومشيئته، وهو في ذلك عادل في كلّ ما يفعل. وعدله بهذا عدل مطلق. ومن ثمّ فإنّه ينبغي أن ننظر إلى الشرّ الذي يقع من زاويتين، أو باعتباره نوعين:

الأوّل: شرّ لا يصنعه الإنسان ولا دخل له فيه ولا يقدر على ردّه، كالموت والكوارث الطّبيعيّة وما إليها. وللحقّ Y في ذلك حكمة قد لا ندركها، ممّا يجعل في هذه الأشياء أو المصائب التي نكرهها ونعتبرها شراً، غير خالية من خير ونفع يعودان على الإنسان والحياة.

الثّاني: شرّ يصنعه الإنسان، وهو يدخل في باب الظّلم والفساد. والله تعالى منزّه عن ذلك: [إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ] [النّساء: 40]، [إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ] [يونس: 44]. ويمكن تسمية هذا الشرّ الذي يصدر عن الإنسان بالشّر السّلوكي أو الخلقي، ويرتبط بالأفعال القبيحة التي يقوم بها بقصد أو بدون قصد. وقد نهانا الله عن ذلك فقال: [ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ] [الرّوم: 41].

والمقصود بالفساد هنا أنّ ما يصيب النّعم التي يستفيد منها الإنسان في معاشه ومختلف أحواله من أضرار يكون جزاءً لهم على سوء أعمالهم. وما هذه الأعمال السّيّئة إلّا ما يتدخّل به الإنسان من تصرّفات، وما يحدثه في الكون من مفسدات. ولهذا عبّر تعالى بفعل "ظهر"؛ أي أنّ الفساد لم يكن موجوداً في الأصل، وإنما أحدثه الإنسان. ويزيد في تأكيد هذا المعنى قوله: [بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ] [الرّوم: 41]؛ مع أنّ إرادته Y شاءت أن يهيئ لهم إطاراً

يعيشون فيه وينعمون بالثّمرات التي جعلها رزقاً لهم، ناهياً إيّاهم أن يتحدّوا هذه الإرادة بأي شكل من أشكال التّحدي، كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

إنّ الإنسان بعقله وعلمه وتجربته قادر على الابتكار وعلى تطوير الحياة، وعلى تحقيق الرّقي والتقدّم، ولكنه في الوقت نفسه قادر على التّدمير وعلى الإبادة، بما يشنّه من حروب وما يثيره من اعتداءات على غيره، وحتّى على نفسه وعلى الكون المحيط به.

ومن أخطر مظاهر هذه الاعتداءات وأبشعها تلويثه للبيئة التي يعيش فيها، أي سوء التّصرّف فيها وفي النّعم التي منحها الله له، وكذا إلحاق الضّرر بالطّبيعة، وتبديد الثّروات، وإحداث الخلل في توازن الكون. وهي كلّها معان تبرز المقصود من تلويث البيئة، هذا التّلويث الذي هو الإفساد والتّلطيخ والتّدنيس والتّوسيخ. ويعتبر أعوص مشكلة تهدّد البيئة وحياة الإنسان اليوم، سواء في المجتمعات المصنّعة أو النّامية. هذا من غير أن نتحدّث عن التّلويث الاجتماعي أو المعنوي، سواء منه ما كان منظوراً أو غير منظور، كانتشار الأميّة والجهل والدّعارة والمخدرات وما إليها من تلويثات أخلاقيّة.

لقد أصبح التّلوّث في طليعة قضايا العصر، بل في مقدّمة المشكلات التي تهدّد حياة الإنسان. وذلكم بسبب عدة عوامل، منها:

أولاً: التقدّم التكنولوجي وما له من تأثير على كلّ مظاهر الطّبيعة بلا استثناء.

ثانياً: القضاء على المساحات الخضراء المحيطة بالمدن أو داخلها، وإقامة المصانع والعمارات الشّاهقة مكانها، وكذا استغلال الغابات بإحراقها واجتثاثها وقطع أشجارها لإنشاء مباني عشوائيّة في الغالب.

ثالثاً: تلويث المدن وأحيائها بعوامل متعدّدة تتولّد عنها في الغالب جراثيم تنشأ عنها أمراض لم تكن معهودة. وتتمثّل هذه العوامل:

1- كيماويّاً في المحروقات، وبقايا المصانع، وأدخنة السّيارات وما إليها.

2- عضوياً في الأزبال المنزليّة والفضلات البشريّة والحيوانيّة، واستعمال المبيدات وصعوبة التخلّص منها أو إعادة استخدامها في مجالات لائقة، مثلما ينبغي التّعامل به مع الصّرف الصّحي.

3- فيزيائيّاً في الضّجيج والضّوضاء، وكثرة الازدحام وضغط البنايات.

رابعاً: فضلات البواخر وحاملات النّفط والنّفايات النّوويّة، أو الفضلات المشعّة النّاتجة عن استعمال الوقود النّووي، وعمل محطّات التّوليد النّوويّة.

وهذه لا تصيب بيئتها فقط، ولكنها تمسّ بالضّرر كلّ البيئات الموجودة حولها. ومنها ما يكون أثره محدوداً يظهر على الفور، ومنها ما يتأخّر تأثيره وتستمر أضراره المشعّة مئات بل آلافاً من السّنين. وإنه ليفكّر في وسائل لدفن هذه الفضلات تحت الأرض أو في أعماق البحار، ولكن ريثما يتحقّق ذلك فإنّها تخزّن بعد تجميدها -أو تصليدها كما يقال- في مستودعات خاصّة. ويعتبر المحيط الأطلسي المدفن الرّسمي لها، ولا سيّما منها ذات الإشعاع المنخفض.

خامساً: تلويث النّفط للبحار ؛ ذلكم أنّه شاع في السّنوات الأخيرة أمر تلوّث البحار بسبب البقع النّفطيّة، ممّا استدعى اهتماماً كبيراً لمواجهته ومعرفة أسبابه.

سادساً: تعرّض النّاقلات للحوادث النّاتجة عن عطب أو اصطدام أو انشطار أو انفجار أو احتراق أو اختفاء، أو جنوح مترتّب عن خطأ ملاحي، أو غير ذلك من الأسباب المقصودة وغير المقصودة.

سابعاً: كثرة عدد النّاقلات ؛ ويصل إلى نحو عشرة آلاف باخرة، نصفها خاص بنقل النّفط.

ثامناً: قِدَم هذه النّاقلات وعدم صيانتها، بل عدم صلاحيّة الكثير منها، إلى حدّ أنه يضيع في البحر بالغرق أو غيره نحو أربعين ناقلة ؛ وهو عُشْر

عدد السّفن التي يبتلعها البحر كلّ سنة. ومنذ التلوّث الذي حدث في خليج المكسيك عام تسعة وسبعين، زاد التّلوّث البيئي ثلاث مرّات، علماً بأنّه يعدّ أكبر تلوّث عرفه العالم، إذ وصلت الكميّات التي صبّت من النّفط في البحر زهاء خمسمائة ألف طن.

تاسعاً: زحف الرّمال، والتّصحّر، والفيضانات الموسميّة، والجفاف، وهجوم الجراد، وكذا ما يقوم به الإنسان من تدمير وإبادة في الحروب.

عاشراً: انتشار عدد من الجراثيم بفعل كلّ تلك الأسباب، وما ينتج عنه وعن ترويج مواد استهلاكيّة فاسدة، من ظهور أمراض لم تكن معهودة، كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

الحادي عشر: ذوبان طبقات جليد القطب الشّمالي والجنوبي، وما إليها من جبال ثلجيّة عائمة، ممّا سينتج عنه ارتفاع منسوب مياه البحر والمحيطات، وما قد يترتّب عنه من إغراق عدد من الجزر والمدن السّاحليّة المنخفضة، وما في هذه المناطق من حياة طبيعيّة وعمرانيّة بما فيها من حضارة وثقافة.

الثّاني عشر: تفجير البراكين، على نحو ما أحدثته السّحابة السّوداء خلال شهري أبريل ومايو 2010م في إيسلندا، وما أفضى إليه من إلغاء الرحلات الجويّة من أوروبا وإليها، بفعل آثار الرّماد المنبعث من هذه السّحابة.

ولعلّ غير قليل من هذه الظّواهر معزو إلى التّقدّم التّكنولوجي والصّناعي وما له من سلبيّات، وكذا إلى المفهوم الليبرالي للتنمية. وهو مفهوم يعنى بمضاعفة الإنتاج بغية تلبية حاجيات المستهلك ورغباته، بعيداً عن مراعاة جانبه الإنساني الذي غدا ضحية السّياسة النّابعة من هذا المفهوم، والمستمرّة على الرّغم من معاناة جميع شعوب العالم من ويلاتها، ولا سيّما الشّعوب "المتخلّفة" التي يخفّف عنها هذا الوصف، باعتبارها سائرة في طريق

النّمو، والتي تبقى تابعة بل خادمة لمصالح العالم المتقدّم ومستهلكة لبعض إنتاجه، رغم أنها تعاني مضار سياسته على مختلف الأصعدة والمستويات.

ثالثاً: رؤية الإسلام للمحافظة على البيئة

إنّ الإسلام يحارب التّلوّث بجميع أشكاله ومختلف مستوياته، بدءاً من مظاهر الفساد التي تصيب الكون، إلى ظواهر الوسخ والعفن التي تلتصق بجسم الإنسان وملبسه ومسكنه وجوانب حياته كافّة. وما أحوجنا إلى أن نعي هذه الظّواهر المرتبطة بنا، لأنّ الإسلام دين الطّهارة والنّظافة في مدلولهما المادي والمعنوي، بل لا يماثله في الدّعوة إليهما أي دين آخر، ولا أي مذهب كيفما كان.

فبالنسبة للنّظافة الماديّة يكفي أن نعرف أنّ أداتها الأولى -وهي الماء- تكرّر ذكرها في القرآن الكريم ثلاثاً وستين مرّة ؛ وتعدّدت مواقف إثارة أهمّيّتها فيه، باعتبار الماء نعمة لا تضاهَى، إذ هو أساس كلّ حياة: [وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ] **[الأنبياء: 30]**. وفي سياق ذكر الماء المرتبط بالطّهارة، يقول تعالى: [وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا] **[الفرقان: 48]**، ويقول: [وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ] **[الأنفال: 11]**.

وبالنّسبة للطّهارة الماديّة والحثّ عليها يقول سبحانه: [وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ] **[المدثر: 4]**، ويقول: [فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ] **[التّوبة: 108]**، ويقول: [إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ] **[الواقعة: 77- 79]**.

ومعروف أنّ المسلم لا يؤدّي صلواته الخمسة كلّ يوم إلّا بعد أن يتوضّأ. وإذا كان جنباً فإنّه يغتسل. ومثل هذا يقال عند النّفاس والحيض، وكذلك في الجمعة والعيدين، وفي مواقف الحجّ ومناسكه كالإحرام والطّواف.

وكان ρ يعنى بنظافة جسمه ويهتم بملابسه، في غير عجب ولا خيلاء. وكان يزيّت شعره ويرجله، ويستعمل السّواك حتّى في الصّيام. وكان يتطيّب ؛ وقد جعل الطيب من الأشياء التي حُببت إليه كما هو معروف.

وغير خافٍ أنّ الإسلام يدعو إلى التزيّن والتجمّل على نحو قوله تعالى: [خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ] **[الأعراف: 31]**، وقول الرّسول ρ: «إن الله يحبّ أن يرى أثر نعمته على عبده»[1]، وقوله كذلك: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر». قال: قال رجل: "إنّ الرّجل يحبّ أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة". قال: «إن الله جميل يحبّ الجمال، الكبر بطر الحقّ وغمط النّاس»[2] . ومثل هذا التّوجيه قوله صلوات الله وسلامه عليه: «إنكم قادمون على إخوانكم فأصلحوا رحالكم وأصلحوا لباسكم حتى تكونوا كأنكم شامة في النّاس، فإنّ الله لا يحبّ الفحش والتّفحّش»[3].

ومن مظاهر النّظافة في الإسلام أنّ المدينة الإسلاميّة في تخطيطها كانت تعنى في كلّ حي بالمتوضآت، وتعطي للحمَّام مكانة أساسيّة، ليس فقط للاغتسال، ولكن حتى للتوضؤ بالماء السّاخن في فصل الشّتاء لمن لم يتيسّر له ذلك في بيته ؛ من غير أن ننسى الإشارة النّبويّة إلى المنازل والمحافظة على نظافة أفنيتها. وفيها يقول ρ: «نظفوا أفنيتكم ولا تشبّهوا باليهود. إن الله تعالى طيّب يحب الطّيّب، ونظيف يحبّ النّظافة، وكريم يحبّ الكرم، وجواد يحب الجود، فنظّفوا أفنيتكم ولا تشبّهوا باليهود»[4]. ولأهميّة النّظافة في الإسلام قال

---

(1) أخرجه الترمذي من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

(2) رواه مسلم عن عبد الله بن مسعود.

(3) أخرجه أحمد وأبو داود عن سهل بن الحنظليّة.

(4) رواه التّرمذي عن سعد بن أبي وقاص.

ρ: «الطُّهور شطر الإيمان»[1]، أي أن التّطهّر من الأدناس الماديّة والمعنويّة نصف الإيمان أو جزء مهم منه.

وهذا يقودنا إلى الجانب الثّاني من النّظافة، وهو المتعلّق بالطّهارة الرّوحيّة والفكريّة والسّلوكيّة. وعلى الرّغم من أنّ جوانب هذه الطّهارة الباطنيّة كثيرة ومتعدّدة، فإنه يكفي أن نشير منها إلى ما يلي:

أولاً: الابتعاد عن الفواحش والآثام، وعن الحرام كيفما كان نوعه ومن أي مصدر كان. يقول تعالى: [**وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ**] **[الأنعام: 151]**، [**وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا**] **[الإسراء: 32]**، ويقول سبحانه: [**وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا**] **[المائدة: 88]**. وفي هذا السّياق حرّم الله أكل كلّ ما هو خبيث وغير طيّب، على نحو قوله Y: [**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ**] **[المائدة: 3]**. كما حرّم الخمر لقوله Y: [**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**] **[المائدة: 90]**. ويقول رسول الله ρ: «كل مسكر خمر وكل مسكر حرام»[2]، ويقول: «ما أسكر كثيره فقليله حرام»[3]. وذلكم ما يفضي إلى ضرورة المحافظة على الحياة. يقول عز من قائل: [**وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ**] **[البقرة: 195]**، [**وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ**] **[النّساء: 29]**.

ثانياً: ترك الغلو والإسراف في الأكل والشّرب واللباس، وغير ذلك ممّا سبق ذكره.

---

(1) حديث مروي عن أبي مالك الأشعري كما عند مسلم والنّسائي والتّرمذي.

(2) رواه مسلم وأحمد عن ابن عمر.

(3) أخرجه أحمد وأبو داود والتّرمذي عن جابر.

ثالثاً: التّجمّل بالأخلاق الفاضلة والسّلوك الحميد، سواء في التّعامل مع الله أو مع النّفس أو مع المجتمع ؛ إذ إنّ المؤمن مطالب بأن يحفظ جوارحه ولسانه وتفكيره من كلّ ما هو قبيح، على نحو الغيبة والنّميمة وشهادة الزّور والأيمان الكاذبة، وكذا لهو الحديث والأغاني الخليعة والمسلسلات الرّقيعة، وما إليها ممّا يشغل عن عبادة الله ويمنع من العمل الصّالح. يقول تعالى: [**وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ**] **[لقمان: 6]**.

بهذه الطّهارة الماديّة والمعنويّة يبتعد المسلم عن كلّ ما هو خبيث وقبيح، ويقترب من كلّ ما هو طيّب وجميل.

وتجدر الإشارة إلى أنّ المحافظة على البيئة وحمايتها لا تقتصران على محاربة التّلوّث الماديّ والمعنويّ، ولكنها تتعدّى ذلك إلى التّشجيع على تنمية البيئة بالغرس والزّرع، وما إلى ذلك من أعمال البرّ والخير. يقول رسول الله ρ: «ما من رجل يغرس غرساً إلّا كتب الله له من الأجر ما يخرج من ذلك الغرس»[1]، ويقول: «سبع يُجرى للعبد أجرهن من بعد موته وهو في قبره: من علم علماً، أو أجرى نهراً، أو حفر بئراً، أو غرس غرساً، أو بنى مسجداً، أو ورث مصحفاً، أو ترك ولداً يستغفر له"[2]. وللإلحاح على الغرس يقول ρ: «ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له صدقة»[3].

وفي هذا الحديث الأخير ما يقود إلى اعتبار حقّ بقيّة المخلوقات أن تعيش في البيئة مع الإنسان مظهراً للمحافظة على هذه البيئة. يقول Y: [**وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ**

---

(1) رواه الطّبراني في الأوسط.

(2) رواه البزّار في مسنده عن أنس.

(3) أخرجه البخاري في كتاب الحرث عن أنس.

رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ] **[الأنعام: 38]**، ويقول: [**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**] **[الإسراء: 44]**.

وفي إطار هذا النّوع من المحافظة على البيئة تندرج إزالة ما يؤذي النّاس في الطّريق، واعتبار ذلك من الإيمان، لقول الرّسول الكريم ρ: «الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطّريق، والحياءُ شعبة من الإيمان»[1]؛ ومثله قوله صلوات الله عليه: «عُرضت عليَّ أعمال أمتي حسنها وسيئها فوجدت من محاسن أعمالها الأذى يُماط عن الطّريق»[2]، وقوله ρ: «إماطتك الحجر والشّوكة والعظم عن طريق النّاس صدقة»[3] ، وقوله سلام الله عليه في هذا الصّدد: «بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطّريق فأخَّره فشكر الله له فغفر له»[4]، وقوله كذلك: «إنّ شجرة كانت تؤذي المسلمين فجاء رجل فقطعها فدخل الجنّة»[5]. وسأل أبو برزة النبي ρ قال: "علّمني شيئاً أنتفع به" قال υ: «اعزل الأذى عن طريق المسلمين»[6].

وإلحاحاً على مثل هذا الأمر قال ρ: "اتقوا الملاعن الثّلاث: البراز في الموارد وقارعة الطّريق والظّل»[7]، وقال كذلك: «اتقوا اللّاعنَين»، قالوا: «وما اللاعنان ؟»، قال: "الذي يتخلّى في طريق النّاس أو ظلّهم"[8]. وقد جمع القرآن الكريم ما يتّصل بعموم هذه الظّاهرة في قوله تعالى: [**وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ**

---

(1) رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها.
(2) أخرجه مسلم وابن ماجة عن أبي ذر.
(3) كما عند البيهقي.
(4) رواه مسلم عن أبي هريرة.
(5) رواه مسلم عن أبي هريرة.
(6) أخرجه مسلم عن أبي الوازع.
(7) رواه ابن ماجة وأبو داود عن معاذ.
(8) أخرجه مسلم عن أبي هريرة.

ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا] [الأحـــزاب: 58].

ومن دواعي مثل هذه التّوجيهات القرآنيّة والنّبويّة الكريمة، ما للأرض ونظافتها من مكانة تصل إلى اعتبارها أداة تيمّم ومكاناً للصّلاة، على حدّ قول رسول الله ρ: "جُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً"[1]، وقوله ρ: «الأرض كلّها مسجد إلّا المقبرة والحمام"[2]. وتبلغ هذه المكانة عند النّبي الكريم درجة الحبّ، لقوله υ: "هذا أُحُد وهو جبل يحبنا ونحبّه"[3]. وقد عدَّد ابن رشيق القيرواني بعض مظاهر هذا التعلّق بالأرض وأسبابه في هذين البيتين:

سألتُ الأرض لِمْ جُعلت مُصلى ولِمْ كانت لنا طهراً وطيبا
أجابت غير ناطقة لأني ضممت لكل إنسان حبيبا

على هذا النّحو يتّضح أنّ منظور الإسلام للبيئة، يعتبر ضرورة حمايتها والمحافظة عليها وتنميتها عبادة تفرض على كلّ فرد أن يؤدّيها، وكذا على كلّ مجتمع، باعتبارها ـ أي هذه العبادة ـ هي الغاية من إيجاد جميع الكائنات. يقول سبحانه: [وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ] [الذاريات: 56]، ويقول: [وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ] [الإسراء: 44].

ذلكم أنّ الله تعالى حين تفضّل على الخلق بنعمه، لم يطلب منهم إلّا أن يعبدوه وفق ما سبقت الإشارة إليه. ومن العبادة شكر الله على هذه النّعم، ومراعاة الضّوابط التي أرادنا أن نهتدي بها ونسير عليها ؛ وهو تعالى القائل: [فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ] [الأنبياء: 80]، والقائل: [لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ] **[إبراهيم: 7]**. وقد يعدّ إهمال هذه العبادة كفراً بالنّعمة يُعرّض الواقع فيه إلى العقاب، لقوله سبحانه: [وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً

---

(1) رواه أحمد عن أنس بن مالك، وأبو داود عن أبي ذر الغفاري.
(2) رواه أحمد وأبو داود عن أبي سعيد الخدري.
(3) رواه أحمد عن أنس بن مالك.

يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ] **[النّحل: 112]**. ولا عجب، فإنّ وراء الحثّ على هذه العبادة، ما يترتّب على صيانة البيئة من ضمان استمرار مقوّمات الحياة.

إنّ الإنسان مدعو إلى تأمّل الكون والوجود، أي تأمّل البيئة من حوله لتأكيد إيمانه وتقويته، وفق ما تبرزه هذه الآيات الكريمة: [أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ] **[الأعراف: 185]**، [قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ] **[يونس: 101]**، [أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ] **[ق: 6]**، [فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ۝٢٦ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ۝٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ۝٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ۝٣٠ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ۝٣١ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ] **[عبس: 24- 32]**، [أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ۝١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ۝١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ] **[الغاشية: 17- 20]**. وقد أكّد Y أنه سيجعل الإنسان يتأمّل الوجود حوله: [سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ] **[فصلت: 53]**.

ولعلّنا أن نضيف أنّ ممّا يدل على كبير عناية الإسلام بالمحافظة على البيئة، أنّ كتب الفقه والحسبة والأحكام السّلطانيّة ـ على سبيل المثال ـ مليئة بالأحكام والتّوجيهات الحاثّة على هذه المحافظة، حتّى في زمن الحرب. فعن يحيى بن سعيد أنّ أبا بكر بعث جيوشاً إلى الشّام فخرج يمشي مع يزيد بن أبي سفيان، وكان يزيد أمير رُبع من تلك الأرباع، فقال: "إني موصيك بعشر خِلال: لا تقتل امرأة ولا صبياً ولا كبيراً هرماً، ولا تقطع شجراً مثمراً، ولا تَخْرب عامراً، ولا تَعقِرن شاة ولا بعيراً إلّا لمأكلة، ولا تَعقِرن نخلاً ولا تُحرقه، ولا تَغْلُل ولا تَخُبَّن"[1].

خاتمة: الموقف الدّولي من مشكل البيئة والحاجة إلى ميثاق أخلاقي

---

(1) رواه مالك في الموطأ كما عند الشّوكاني في نيل الأوطار ، ج 7 ص 263

هذا، وفي السّياق الرّامي إلى المحافظة على البيئة ومحاربة تلويثها أو تدميرها، وربطاً لمشكلها بما يثار عنها في المرحلة المعاصرة، نتذكّر القمّة التي انعقدت في ديسمبر 2009م في كوبنهاجن، عاصمة الدنمارك، والتي التقى فيها مسؤولون عن أكثر من تسعين ومائة دولة، للتباحث في شؤون البيئة والمناخ، والتي هي القمّة الخامسة عشرة في سلسلة مؤتمرات الأمم المتّحدة الخاصّة بهذه الشّؤون. وللأسف فإنّ القرارات التي اتخذتها "مجموعة العشرين" المتقدّمة صناعياً، أكّدت مواقفها على حساب الدّول السّائرة في طريق النّمو.

ويكفي للدّلالة على ذلك ما وقع الاتّفاق عليه، بما يخدم الدّول الصّناعية، على نحو ما يتعلّق بالحدّ من ارتفاع درجة حرارة الأرض، من غير أن يُشار إلى الحدّ الأقصى الذي لا ينبغي تجاوزه، وكذا إلى كيفيّة التّوفيق بين مثل هذا الاتّفاق وما تتطلّع إليه تلك الدّول للتنميّة الاقتصاديّة وغيرها، وهو ما عبّرت عنه "مجموعة إفريقيا" ودول أخرى مساندة.

لقد ووجه هذا المؤتمر منذ البداية بمظاهرات احتجاجيّة، وبإدانة بعض الدّول، وبإبداء قلق رؤساء وفود ؛ واتّضحت صعوبة الاتّفاق حول الاحتباس الحراري. وهو اتّفاق عملت الولايات المتّحدة وما إليها من دول اقتصاديّة كبرى على الإقناع به وبما انتهى إليه من غاية تهدف إلى الحدّ من ارتفاع حرارة الأرض، والإبقاء عليه دون درجتين مئويتين، مقارنة بما كان قبل ؛ مع العلم أنّ هذه الدّول تعتبر مسؤولة عن معظم الانبعاثات الغازيّة التي تتسبّب في زيادة ظواهر الاحتباس الحراري التي لا يخفى ما لها من أخطار وعواقب كارثيّة ؛ ومع العلم كذلك أنّ اتفاقيّة كيوتو التي سينتهي العمل بها عام اثني عشر وألفين، لم تفض إلى تحقيق ما كان مقرّراً للحدّ من هذا الاحتباس، وكذا ما ينبغي تقديره من مساعدات ماليّة لإعانة الدّول الفقيرة على مواجهة آثار ذلك.

وبعد، فإنّ الحاجة ماسّة إلى ميثاق أخلاقي عالمي يواكب ما تعرفه الإنسانيّة من تقدّم على مختلف المستويات، لتحقيق سلوك فردي وجماعي يتوازن ويتلاءم مع مقتضيات هذا التّقدّم، بقصد الاستفادة من إيجابيّاته وتجنب سلبيّاته.

وهو ما يفرض إعادة النّظر في كيفيّة استثمار الموارد البشرية والطّبيعيّة، وما إليها من الموارد التي تقوم بها الحياة بتوسّط واعتدال وحسب الحاجة، وبما يخفّف من الأخطار النّاجمة عن المبالغة في هذا الاستثمار والإسراف فيه. ولا مجال لبلوغ مثل هذه المراجعة من غير الاهتمام بالإنسان والعناية بتنميته. وللتربية البيئيّة المؤسّسة على القيم المراعية لهذه الأهداف والقادرة على تحقيقها دور كبير يحتاج النّهوض به إلى برامج توصل إلى ذلك.

وإننا حين ننظر في قضايا البيئة على مستوى العالم العربي، نلاحظ أنّه يشكّل منطقة أو مناطق مختلفة التّكوين، ما بين جبال وسهول وسواحل، تحيط به بحار من الشّرق والغرب، في محاذاة لأوروبا في الشّمال، وإفريقيا تحت الصّحراء في الجنوب، ولآسيا في الشرق. وهو ما يجعل البيئة في هذا العالم تتميّز بالتنوّع والتّعدّد؛ وفي نفس الوقت تجعل مناخه عرضة لعدم الاستقرار، وعرضة كذلك للكوارث وعوامل التّلوّث التي قد تصيبه من دول العالم المتقدّم صناعيّاً واقتصاديّاً.

وهي كلّها عوامل تفرض على هذا العالم مراعاة المشكل البيئي بسائر مجالاته، في تنسيق مستمر بين معطيات هذه المجالات وبين المتطلّبات السّياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة، مع إيلاء أهمّيّة قصوى للتّفاعل مع الجوانب الثّقافيّة، وما تستوجب من حرص على سلامة الإنسان ومحيطه وحياته عامّة، بما تتحقّق معه ثقافة بيئية لدى أفراد المجتمع.

ومن ثمّ فإنّ الحاجة ماسّة إلى وعي هؤلاء الأفراد بهذه القضايا، وإلى تجنيد كلّ الطّاقات الماديّة والمعنويّة لرفع تحدياتها وإكراهاتها ؛ كلّ في نطاقه الضيّق المحدود، ولو على صعيد داره أو حيّه الذي يسكن فيه. فإذا تحقّق هذا الوعي وانتشر بين النّاس، أدركوا قيمة البيئة وأهمّيّة الحفاظ عليها ؛ وأدركوا كذلك مزايا التّوسّط وعدم الإسراف في استهلاك بعض المواد الحيويّة، وفي طليعتها الماء، واستطاعوا أن يكونوا بعد ذلك مهيئين لمواجهة ما قد تفاجئهم به الطّبيعة من كوارث.

ولا شكّ أنّ مثل ذلك الوعي يحتاج بعد هذا كلّه إلى ضبط مختلف شؤون البيئة، على أن يكون معززاً بمراصد ومختبرات لمراقبة هذه البيئة في شتّى مظاهرها، وجمع المعلومات عنها، وتتبّع أحوالها، وتهييء آليّات الحفاظ عليها، وتنسيق التّعاون بينها وبين جميع مكونات التنمية وحاجياتها، وإيجاد حلول لمشكلاتها، وتشجيع البحث العلمي بهذا الصّدد ؛ دون أن ننسى التّراث في معالمه ومآثره الحضاريّة والثّقافيّة. ولعلّ ذلك كلّه أن يكون ممهّداً له بدورات تكوينيّة، وندوات علميّة على غرار هذا المؤتمر الكبير الذي أسعد بالمشاركة فيه بهذا البحث، والذي تعقده ـ مشكورة ـ مؤسسة آل البيت الملكيّة للفكر الإسلامي في موضوع: "البيئة في الإسلام".